

ملامح المجتمع المثالي في شعر حافظ إبراهيم

Features of the ideal society in Hafez Ibrahim's poetry

سردار أصلاحي	ساجد زارع*
جامعة أصفهان (إيران)	جامعة يزد (إيران)
aslani@fhn.ac.ir	zare.sajed@yazd.ac.ir

معلومات المقال	الملخص:
تاريخ الارسال: 2025/07/04 تاريخ القبول: 2025/08/03	إن الرؤية المستقبلية والطموح لبناء مجتمع مثالي من أبرز الملامح التي يتسم بها قسط كبير من ديوان الشاعر الوطني حافظ إبراهيم انطلاقاً من حبه لوطنه مصر مما أدى إلى إطلاق لقب «شاعر النيل» عليه في الأوساط الأدبية. من هذا المنطلق تبرز معالم مجتمع مثالي تستنبط من شعر حافظ إبراهيم، رغم أنه لم يصرح بمثله. بناء على ذلك، يهدف هذا البحث إلى دراسة ملامح المجتمع المنشود في شعر حافظ إبراهيم وميزاته مرتكزاً على المنهج الوصفي - التحليلي. تدل النتائج على أن الميزات الرئيسية التي يتسم بها المجتمع المثالي من خلال أشعار حافظ إبراهيم هي الحب، والحرية، والوحدة الوطنية والتسامح الديني، والاستقلال؛ والشاعر في امتداد أمله للغد المأمول معترف بأن هناك عقبات عديدة أعاققت عن ظهور ملامح المجتمع المثالي حوله؛ منها ما يرتبط بالأسباب الناتجة عن الإهمال الداخلي وما ينشأ عن التدخل الخارجي.
الكلمات المفتاحية: ✓ المجتمع المثالي ✓ الرؤية المستقبلية ✓ حافظ إبراهيم ✓ الحرية ✓ الوحدة الوطنية	
Article info	Abstract : (not more than 10 Lines)
Received 04/07/2025 Accepted 03/08/2025	<i>The future vision and the aspiration to build an ideal society are among the most prominent features that characterize a significant portion of the poetry collection of the national poet Hafiz Ibrahim, stemming from his love for his homeland, Egypt, which led to his being called "the Nile Poet" in literary circles. From this standpoint, the features of an ideal society emerge, derived from Hafiz Ibrahim's poetry, although he did not explicitly articulate such a model. Accordingly, this study aims to examine the characteristics of the desired society in Hafiz Ibrahim's poetry and its attributes, relying on a descriptive-analytical approach. The results indicate that the main features defining the ideal society through Hafiz Ibrahim's poems are love, freedom, national unity, religious tolerance, and independence. The poet, in extending his hope toward a promising future, acknowledges that many obstacles hindered the emergence of the ideal society's features around him; these obstacles include causes stemming from internal neglect as well as those arising from external interference.</i>
Keywords: ✓ The Ideal Society ✓ Future Vision ✓ Hafez Ibrahim ✓ freedom ✓ National Unity	

مقدمة

مما لا يرتاب فيه أحد أن لكل مفكر أو أديب رسالي تهّمه قضايا الحياة البشرية آمالاً متنوعة يتمنى تحقّقها في المجتمع البشري. ومعظم الأدباء من خلال أعمالهم الأدبية يصوّرون مجتمعاً مثالياً يُحيطون فيه اللّثام عن مطامحهم التي لا يجدون لها أثراً في عالم الواقع فيما بين أبناء البشر؛ ولكن ما يجدر بالإشارة توطئةً للبحث أنه تختلف طُرُق الأدباء عن بعضها في كيفية التعبير عن هذه الأماني لتصوير مدينتهم الفاضلة. فمعظم الرومنسيين الذين يستبدلون العقل بالخيال والعاطفة الجياشة ينجحون إلى الطبيعة ويهملون الواقع الاجتماعي إهمالاً ينم عن شعورهم بالألم والتشاؤم من الأجواء السائدة فيما حولهم. إنهم بهذه المثابة يجعلون من الطبيعة بُرجاً عاجياً يصوّرون فيه طموحاتهم المثالية في نطاق غابة أو حديقة أو أي مكان افتراضي آخر، فيرسمون مدينتهم الفاضلة.

أما حافظ إبراهيم فهو شاعر النيل والشعب وليس بشاعر الحُلم والخيال. شعره شعر العاطفة إلا أنها ليست منظوية على مشاعر سرّية باطنية بل هي عاطفة اختلجت في قلب يحنّ إلى الوطن يرتاح لازدهاره ويستاء من انحطاطه. إذن، فكرة المجتمع المثالي التي تُستلّ من شعر حافظ إنما تختلف جوهرياً عن المدينة الفاضلة الخيالية التي تكون لدى الرومنسيين. لأنه شاعر لم يتخلّ عن الواقع في شعره شأن باقي الكلاسيكيين سوى في أبيات قليلة؛ فحينما كنا نبحث عن فكرة المجتمع المثالي عند حافظ لم نتوقّع على الإطلاق أن نواجه في شعره صورة خيالية حاملة بحثة مثلما تمثّل أحياناً في شعر الرومنسيين والذي أسلفنا القول فيه. إذ الكلاسيكيه تميل إلى الواقع والإفصاح في التعبير أكثر منه إلى الخيال والضبابية.

فحاول حافظ إبراهيم دون اللجوء المفرط إلى أساليب الرمز وصور الخيال لتوجيه وطنه إلى المجتمع المثالي الذي يرومه. إذ كان للوطن باعتباره منبت نموّ الإنسان، أهمية فائقة عند حافظ الذي ترعرع في أكنافه واستأنس بأبنائه. فمن المتوقع منه أن يكون بصدد إصلاح المجتمع وتخليصه من شوائب الظلم والردائل. فعلى أساس ذلك تناولنا مقومات المجتمع المثالي المنشود في شعر حافظ إبراهيم بتحليل معالنه مركزين على المنهج الوصفي – التحليلي. إذن، تسعى هذه الدراسة الإجابة عن الأسئلة التالية :

1. ما السمات الأساسية للمجتمع المثالي كما يصوّرها حافظ إبراهيم في شعره؟

2. ما العوامل التي يرى حافظ إبراهيم أنّها تُعيق الوصول إلى المجتمع المثالي؟

خلفية البحث

بعد مراجعة موسّعة للدراسات السابقة والبحوث العلمية ذات الصلة، تبَيّن للباحثين وجود عدد من الأعمال التي تناولت شعر حافظ إبراهيم من زوايا أخلاقية واجتماعية وفكرية متعدّدة. وفيما يأتي أهمّ هذه الدراسات التي أسفرت عنها المراجعة مع بيان أبرز نتائجها:

توصّلت المنتشري الشمري (2009م) في رسالتها الموسومة بـ"الأخلاق في شعر حافظ إبراهيم" إلى أنّ المضامين الأخلاقية في شعره وردت بشكل ضمني من خلال قصائد المدح والثناء والشكوى والسياسة، دون أن يخصّص لها قصائد مستقلة. كما بيّنت الدراسة أنّ حافظ إبراهيم كان يوجّه خطابه الشعري إلى عامة الناس، ولذلك حرص على استخدام لغة بسيطة وسهلة لضمان وصول المعاني بوضوح.

أما مقالة بيراني شال وغلامي (1391ش) المعنونة بـ"الشكوى من الشقاء والفقير والظلم والدمر في شعر حافظ إبراهيم"، فقد خلصت إلى أنّ الشاعر عبّر بوضوح عن معاناة الفقر التي يعيشها هو وأبناء وطنه، منتقداً من خلالها السياسات الاستعمارية الأجنبية التي أدّت إلى إفقار المجتمع المصري ونهب موارده. كما أظهرت الدراسة أنّ الشكوى من الدهر كانت عنصراً أساسياً في شعره، اتخذها وسيلة للتعبير عن معاناته الاجتماعية والنفسية.

وفي دراسة مقارنة بعنوان "صورة الشرق والغرب في شعر حافظ إبراهيم وإقبال اللاهوري" للباحثين دلشاد وأصغري (1390ش)، توصّل الباحثان إلى أنّ كلا الشاعرين عبّرا عن إعجابهما بالتقدّم العلمي في الغرب، لكنّهما شدّدا في الوقت نفسه على أنّ هذا التقدّم لا يكون نافعاً إلا إذا لم يؤدّ إلى إثارة الصراعات أو زعزعة العلاقات بين الشعوب، خصوصاً شعوب الشرق. كما كشفت الدراسة أنّ حافظ إبراهيم، نظراً لخلفيته العسكرية، اتخذ أسلوباً حماسياً في خطابه، بينما لجأ محمد إقبال إلى المنطق والتحليل العقلي في إيصال أفكاره.

كذلك توصّلت مقالة بيراني شال وأميدوار (1389ش) بعنوان "تأثير آراء محمد عبده في أشعار حافظ إبراهيم الدينية" إلى أنّ أفكار الشيخ محمد عبده تركت أثراً واضحاً في شعر حافظ إبراهيم، خاصة في الموضوعات المتعلقة بالحجاب، والزكاة، والشورى، والجهاد، والتسامح، والإصلاح الديني. وقد أكدت الدراسة رفض حافظ للبدع والعادات التي تتعارض مع مبادئ الدين، مما يعكس تأثره العميق بالنهج الإصلاحية لعبده.

من هذا المنطلق ورغم تعدّد الدراسات السابقة، لم نعثّر -بعد جهدٍ وبحت- على دراسة تناولت بتركيز خاص فكرة المجتمع المثالي المنشود في شعر حافظ إبراهيم. من هنا تبرز خصوصيّة هذه الدراسة وأهميّتها، إذ تهدف إلى تسليط الضوء على معالم الرؤية المستقبلية للمجتمع المثالي كما تتجلى في نتاجه الشعري.

نبذة عن حياة حافظ إبراهيم

اختلفت أقوال العلماء في سنة ولادة محمد حافظ فذهب بعضهم إلى أن مولده كان سنة ١٨٧٠م¹ والبعض الآخر إلى أنه كان سنة ١٨٧١م² وذهب الفريق الثالث إلى أنه كان سنة ١٨٧٢م³ واتفقت على أن حافظاً ولد في سفينة ذهبية كانت ترسو على شاطئ النيل أمام بلدة ديروط في أعلى صعيد مصر من أب مصري مهندس اسمه إبراهيم فهمي وأم تركية الأصل اسمها الست هانم كريمة أحمد البورصة لي. توفي والده وعمره أربع سنوات وتوفيت والدته فظلّ يعيش في بيت خاله. ثم انتقل مع خاله إلى طنطا وملاً فراغه بالمطالعة وقرض الشعر، ثم أكبّ إلى المحاماة فأخفق فانتقل إلى القاهرة

١- ضيف، شوقي، (د ت)، الأدب العربي المعاصر في مصر، القاهرة: دار المعارف: ص100.

٢- الباوي، محمد محمود، (2004م)، عمالقة الأدب العربي المعاصر، بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ص48.

٣- كردعلي، محمد، (1993م)، المعاصرون، علّق عليه محمد المصري، بيروت: دار الصادر، ص162.

والتحق بالمدرسة الحربية فخرج ضابطاً وفي سنة ١٨٩٦ للميلاد أرسل إلى السودان فاشترك في ثورة مع بعض الضباط فعوقب فعاد إلى مصر فقاسي الضياع والحاجة وقلة الأمل وتوفي شاعر النيل سنة ١٩٣٢ للميلاد¹. تكشف سيرة حافظ إبراهيم عن نشأته في ظروف قاسية شابها فقد المبكر لوالديه، ومعاناة اليتيم والفقر والتنقل بين المدن، فضلاً عن تقلباته المهنية من المحاماة إلى العسكرية، ثم معاناته من العقاب والضياع بعد مشاركته في ثورة ضد الظلم. هذه التجارب الحياتية شكلت وعيه الاجتماعي، وجعلته أكثر إدراكاً للنقائص والاختلالات في مجتمعه، وهو ما انعكس بوضوح في شعره الذي حمل رؤى ناقدة للواقع ودعوة إلى بناء مجتمع أكثر عدالة وكرامة. وانطلاقاً من هذه المعاناة تجلياتها في شعره، تبلور ملامح تصوّره للمجتمع المثالي، وهو ما حاولنا الوقوف على أبرز مقوماته في هذه الدراسة.

الرؤية المثالية لحافظ إبراهيم بين تشاؤم الواقع وأمل الغد

قبل الولوج في صميم البحث جدير بالذكر أنه تبرّم شاعر النيل كثيراً ممّا كان يجري في الوطن المصري أولاً ثم في العالم العربيّ بأكمله، فاتّخذ موقف التشاؤم في معظم أشعاره من المجتمع، حيث وصفه قائلاً:

إِذَا مَا مَرَّ بِالْبَاسَاءِ عَامٌ أَطَّلَ عَلَيْهِ بِالْبَاسَاءِ عَامٌ
فَسَاءَ مَقَامُنَا فِي أَرْضِ مِصْرَ وَطَابَ لَعِينُنَا فِيهَا الْمَقَامُ²

وسبب هذا يعود إلى أنه كان شاعراً وطنياً رسالياً له طموحات مثالية يتمناها. فإذا ما وجد البون شاسعاً بين هذه الآمال وبين واقع المجتمع الذي فيه يعيش تمهّد الطريق لتشاؤمه ويأسه. إذ حينما أبصر وطنه مصر وما أحرق به من الأوضاع المأساوية الناتجة عن تدخّل الأجانب تفجّع من أجله مشفقاً عليه، شاكياً أبناءه، حيث وصف مصر بلداً يضيق به الرجاء خالياً من المفاخر الحقيقية، فيقول:

وَمَا أَرْجُوهُ مِنْ بَلَدٍ بِهِ ضَاقَ الرَّجَاءُ وَبِي
وَهَلْ فِي (مِصْرَ) مَفْخَرَةٌ سِوَى الْأَلْقَابِ وَالرُّتَبِ³

ولكنه بالرغم من تشاؤمه من الأوضاع السائدة في المجتمع لم يتعقّق عن إفراغ أفكاره المثالية في إناء الشعر بل حاول أن يشقّ سبيلاً لتوجيه أبناء المجتمع إلى التقدّم والرقي في المستقبل المتوقع الآتي، الذي يعبر عنه بـ«الغد المأمول»:

رِجَالُ الْعَدِ الْمَأْمُولِ إِنَّا بِحَاجَةٍ إِلَى قَادَةٍ تَبْنِي وَشَعْبٍ يُعَمِّرُ
رِجَالُ الْعَدِ الْمَأْمُولِ إِنَّا بِحَاجَةٍ إِلَى عَالِمٍ يَدْعُو وَدَاعٍ يُدَكِّرُ
رِجَالُ الْعَدِ الْمَأْمُولِ لَا تَتَرَكُوا عَدَا يَمُرُّ مُرُورَ الْأَمْسِ وَالْعَيْشُ أَغْبَرُ
فُصَارَى مُنَى أَوْطَانِكُمْ أَنْ تَرَى لَكُمْ يَدًا تَبْنِي مَجْدًا وَرَأْسًا يُفَكِّرُ⁴

¹ - ضيف، شوقي، (د ت)، الأدب العربي المعاصر في مصر، القاهرة: دار المعارف: ص 101-102.

² - حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج 1، القاهرة: دار المعارف، ص 55.

³ - حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج 1، القاهرة: دار المعارف، ص 110.

تبرز رؤية حافظ المستقبلية في هذه الأبيات والعشرات مثلها بكلّ جلاء، وهي تدلّ على أنه لم ييأس من نزعتة المثالية، ولم تخمد جذوة آماله الوطنية. يتحدّث فيها عمّا كان المجتمع يحتاج إليه في زمنه مستعيناً برجال سوف يأخذون بزمام الأمور في الغد المأمول على قضاء هذه الحوائج الماسّة. لأنه كان بصدد تهينة الأرضية لإقامة نهضة تفتح آفاقاً جديدةً على الوطن المصري والعالم العربي:

عَلَى أَنَّ فِي أَفْقِنَا نَهْضَةً سَنَبْلُغُ رَغَمَ الْقُغُودِ الْمَدَى
وَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَلَغَتْ أَوْجَهَا كَذَا كُلُّ شَيْءٍ إِذَا مَا ابْتَدَأَ¹

وهذه النهضة المتوخاة عند حافظ لا تتمثّل _حسب ما يُطلعنّا شعره_ إلّا بعد أن تحلّت البلاد بميزات مجتمع مثالي يعتبر أقصى غايات الرقي والتطور؛ الميزات التي نادى بها من خلال أشعاره، والتي حسبناه ممهداً لمسار بنائه. المجتمع المطلوب الذي لم يُصرّح به ولكن المقومات التي شيّد عليها حافظ صرّح آماله المثالية تُستنبط من خلال أشعاره.

أهمّ مقومات المجتمع المثالي وميزاتها في شعر حافظ إبراهيم

1. الحبّ والموّدة

يمثّل الحبّ في شعر حافظ إبراهيم ركيزة أساسية من ركائز المجتمع المثالي، إذ يُنظر إليه باعتباره علاقة روحية قوية تربط بين الأفراد، تقوم على التعلّق والارتباط المتبادل الذي يعزز الشعور بالاستئناس والراحة النفسية قرب المحبوب، والخوف من بعده. وهذه الرؤية تعكس أهمية الحب في توحيد الناس وتعميق روابطهم الاجتماعية والإنسانية، بحيث لا يقتصر محبّته على فئة معينة أو وطن محدد، بل تشمل جميع البشر بلا استثناء. ويمكننا القول في سياق مفهوم هذه الكلمة ما يلي: لعلّ أدقّ تعريف له _أي: للحب_ أن يُقال: إنّه التعلّق بالشيء على وجه الاستئناس بقربه والاستيحاش من بُعده. فهذا هو المعنى الذي نلاحظه في محبة الإنسان للإنسان².

كان حافظ رجلاً عاطفياً، وعاطفته الفياضة جعلته ينشر حبّه المتوافر لأبناء الوطن في الدرجة الأولى، ثم لأبناء البشر. لأنّ موقفه من الحبّ لا يقتصر على شيء أو أحد بعينه، بل يشمل كلّ من يوجد في عالم الكون من العرب كان أو غيرهم. فالحبّ من أهمّ المقومات لأهل المجتمع المثالي عنده، وهو على أقسام:

أولاً: حبّ الوطن

يمكن اعتبار حب الوطن عند حافظ إبراهيم تجسّداً لعمق ارتباط الإنسان بمكانه وبيئته حيث يتجاوز هذا الحبّ حدود العاطفة البسيطة إلى مستوى أُسمى يُعبّر عن الولاء والارتباط الروحي والاجتماعي. يظهر هذا الارتباط في شعره بوضوح، إذ لا يقتصر على شكل من أشكال الانتماء، بل يمثل أساساً لبناء الهوية الوطنية والنفسية للفرد والمجتمع إذ يقول:

4- حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص42.

1- حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص226.

2- البوطي، محمد سعيد رمضان، (2010م)، الحب في القرآن ودور الحب في حياة الإنسان، دمشق: دار الفكر، ص18.

لَعَمْرُكَ مَا أَرَقْتُ لِعَيْزٍ مِصْرَ وَمَا لِي دُونَهَا أَمَلٌ يُرَامُ¹

حب الوطن والالتصاق به من الأمور الفطرية لدى كل شخص من أبناء البشر. وحسبما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة: «حب الوطن من الإيمان»².

يقول حافظ في التعبير عن حبه للوطن:

كَمْ دَا يُكَابِدُ عَاشِقٌ وَيُلَاقِي فِي حَبِّ مِصْرٍ كَثِيرَةَ الْعُشَاقِ
إِنِّي لِأَحْمِلُ فِي هَوَاكِ صَبَابَةً يَا مِصْرُ قَدْ خَرَجْتَ عَنِ الْأَطْوَاقِ
هَقِي عَلَيَّكَ مَتَى أَرَاكَ طَلِيقَةً يَحْمِي كَرِيمَ حِمَاكَ شَعْبٌ رَاقِي
كَلِفٌ بِمَحْمُودِ الْخِلَالِ مُتَيَّمٌ بِالْبَذْلِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَالْإِنْفَاقِ³

فهو يعترف بأنه يُحبّ وطنه مصرَ مكابداً في سبيل حبه للوطن أوجاعاً يكاد لا يُطيقها، ويتلهّف على رؤية زمنٍ قد تخلص فيه الوطن المصري من نير الاحتلال الأجنبي وأخذ بزمام أموره رجالاً متقدمون يسترخصون النفس والنفس للدفاع عن حياض هذا الحريم المقدّس ونرى شاعر النيل في غير هذا الموضوع يخاطب الإنجليز قائلاً:

حَوَّلُوا وَاحْجُبُوا الضُّوءَ عَنَّا وَاطْمِسُوا النَّجْمَ وَاحْرُمُونَا النَّسِيمَا
وَامْلُؤُوا الْبَحْرَ إِنْ أَرَدْتُمْ سَفِينَا وَافْلُؤُوا الْجَوَّ إِنْ أَرَدْتُمْ رُجُومَا
إِنَّا لَنْ نَحُولَ عَنْ عَهْدِ مِصْرَ أَوْ تَرَوْنَا فِي التُّرْبِ عِظْمًا رَمِيمَا⁴

من الملاحظ في هذه الأبيات أنّ حافظاً يذكر الإنجليز بأن أبناء الشعب المصري راغون على عهدهم وحبهم للوطن بحيث لو انقلب الدهر واشتدت المصائب النازلة على رؤوسهم من جانب الاستعمار الإنجليزي، فهم لا ينصرفون عن هذا الحب المقدّس. ولا يكتفي حافظ بهذا بل يُنذر الإنجليزيين بوقوع عاصفة تنشأ من الغضب الجماهيري وتنتهي بهم إلى مغبة وخيمة.

فَعَدَلْتُمْ هُنَيْهَةً وَبَعَيْتُمْ وَتَرَكْتُمْ فِي النَّيْلِ عَهْدًا دَمِيمَا
فَشَهَدْنَا ظُلْمًا يُقَالُ لَهُ الْعَدُ لُ وَوُدًّا يَسْقَى الْحَمِيمَ الْحَمِيمَا
فَاتَّقُوا غَضَبَ الْعَوَاصِفِ إِلَيَّ قَدْ رَأَيْتُ الْمَسِيرَ أَمْسَى وَخِيمَا⁵

من هذا المنطلق، يدعو الجميع إلى صيانة الوطن، والدفاع عنه أمام الأعداء وتخليصه من شوائب الاستعمار. الوطن الذي له حقٌّ مفروضٌ على أبنائه.

فَتَدَقُّوا حُجَجًا وَخُوطُوا نِيلَكُمْ فَلَكُمْ أَفَاضَ عَلَيْكُمْ وَتَدَقَّقَا

¹ - حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص55.

² - أمين، سيد محسن، (1406ق)، أعيان الشيعة، ج1، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، ص301.

³ - حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص279.

⁴ - حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص108.

⁵ - حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص108-109.

حَمَلُوا عَلَيْنَا بِالزَّمَانِ وَصَرَفَهُ فَتَأَنَّقُوا فِي سَلْبِنَا وَتَأَنَّقَا¹

إذ ممّا لا ريب فيه أنّ للوطن حقاً على الإنسان وحسبك أنّ له من الأهمية مكانة عظيمة تكاد لا تُدرك، بحيث من ضحّى بنفسه للدفاع عن الوطن يُكتب له أجر المجاهدين المقرّبين في سبيل الله. وممّا يدلّ على ذلك ما جاء في القرآن الكريم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾² الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ³ يعطي القرآن الكريم هنا صورة من الوطن الذي أذن الله تعالى لمن أُخْرِجُوا منه ظلماً وغنفاً أن يجاهدوا لاسترداد هذا الحرم المقدس ولاستعادة حقوقهم المهضومة. هذا وحبّ الوطن قضية فطرية متأصلة في نفس الإنسان. ومن هنا يبرز مدى أهمية هذا المكان المقدس الذي يتعلّق به الإنسان روحاً وجسداً، ويهيم به حباً وحنيناً.

وكان حافظ. كما تبين فيما سبق من أشدّ الناس حباً لوطنه ومن أبرز شعراء الوطنية، ولكن النقطة التي يجب أن نشير إليها أن مدلول الوطن في شعره قد يتجاوز مصر أحياناً ويشمل العالم العربي. أي الوطن العربي— بأسره. فهو «إذا أحبّ مصر وتغنّى بها ودعا إلى نهضتها، لا ينسى أن مصر جزء من هذا الوطن العربي الكبير الذي يتمنّى له ما يتمنّى لمصر، ولا يرى نهضةً لمصر إلا بنهضته، ولا نهضة له إلا بنهضة مصر»⁴.

ثانياً: حبّ أبناء البشر

ما كان شاعر النيل ليضنّ على باقي أبناء البشر— فضلاً عن أبناء وطنه— بمودّته الشاملة، بل يُفرغها على العالم بأسره؛ لأنّ الحبّ الذي يعتبر عنده من أهم الميزات المثالية لا يقتصر على أحد ولا يتميز فيه إنسانٌ دون إنسان أو عرقٌ دون عرق. وما قاله حافظ في زلزال مدينة مسينا الإيطالية سنة 1908م مواساةً للمصابين بفقد أعزائهم وتهدئةً لنفوسهم، فإنه أصدق برهان على هذا المدّعى، حيث يقول:

ما (لِمَسِينٍ) غَوَجَلْتُ فِي صَبَاها وَدَعَاها مِنَ الرَّدَى دَاعِيَانِ
وَمَحَتَ تِلْكَ الْمُحَاسِنَ مِنْهَا حِينَ تَمَّتْ آيَاتُهَا آيَتَانِ⁴
هَفَفَ نَفْسِي وَأَلْفَ هَفٍّ عَلَيْهَا مِنْ أَكْفٍ كَانَتْ صَنَاعَ الزَّمَانِ⁵

إنّه يستدعي الجميع لإعانة المصابين بهذا الزلزال المدمّر ويسلّم على مسينا وعلى أهلها من الهلكى والمنقذين، ثم يسلّم على كلّ من يُسهم في عمارة هذا البلد من المتبرّعين، قائلاً:

فَسَلَامٌ عَلَيْكَ يَوْمَ تَوَلَّيَ سِ بِمَا فِيكَ مِنْ مَغَانٍ حِسَانِ
وَسَلَامٌ مِنْ كُلِّ حَيٍّ عَلَى الْأَرْضِ ضِ عَلَى كُلِّ هَالِكٍ فَانِي
وَسَلَامٌ عَلَى امْرِئٍ جَادَ بِالِدَمِّ عِ وَتَنَّى بِالْأَصْفَرِ الرِّثَانِ⁶

1- حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص61.

2- القرآن الكريم، سورة الحج 22، الآيتان 29 و30.

3- الفاخوري، حنا، (1986م)، الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب الحديث، بيروت: دار الجيل، ص146.

4- يريد بالآيتان: «زلزال الأرض» و«فيضان البحر».

5- حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص218.

6- حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص220.

إذ هو يرى أن لكل إنسان حقاً على أخيه الإنسان، فإذا ما حلت داهية على أحد من أبناء البشر يجب على الآخرين أن يُسرِعوا إلى الأخذ بيده وإعانتته وإنقاذه. لأن المجتمع البشري المثالي مثله كأعضاء جسد حيّ إذا تخلّل في عملية عضو ما لا يستقر باقي الأعضاء على حالها. وتعبير آخر «إن الرحمة مبادرة إنسانية تدلّ على سموّ الحسّ الإنساني وتوطّد مشاعر الإخاء بين أفراد المجتمع الواحد، فهي التعبير العملي عن تعاطف الإنسان مع أخيه الإنسان فيما يواجهه من أحزان»¹.

ثالثاً: الحبّ بين المتحابّين

إن الحبّ بين المتحابّين يعتبر فرعاً آخر لمفهوم الحبّ الذي هو أيضاً من أهمّ المقومات الرئيسة لأهل المجتمع المثالي في شعر حافظ إبراهيم. وما هو جديرٌ بالذكر أنه هناك صلة وطيدة بين حبّ المتحابّين وحبّ الوطن. يبرز هذا النوع من الحبّ -أي: حبّ الحبيب- في منظومة تمثيلية نظمها حافظ عقب ضرب الأسطول الطليانة لمدينة بيروت انتقاماً من الأتراك وذلك في عهد نشوب الحرب الطرابلسية التي وقعت بين الإيطاليين والترك في سنة 1912م. قد فرض الشاعر هذه الرواية التمثيلية بين جريح من أهل بيروت، وزوجة له اسمها (ليلي). فهو يصوّر فيها حواراً رائعاً بين المتحابّين بينما يكون الرجل الجريح على وشك الاستشهاد، وهو يعبر عن حبّه للوطن بين يدي حبيبته قائلاً لها إنّه لو لم يكن حريم هذا الوطن مأمونا لما يتعارفا وما يتحابّا.

حيث يقول الجريح:

يُرَجَى وَلَا أَنَا مَيِّتٌ	(ليلاي) ما أنا حيٌّ
عَلَى الْحَيَاةِ بَكَيْتُ	(ليلاي) لا تحسّنين
(بيروت) أَنِّي سَلَوْتُ	وَلَا يُخَيِّفُنكَ ذِكْرِي
فِيهَا وَفِيكَ صَبَوْتُ	(بيروت) مَهْدُ غَرَامِي
وَمِنْ هَوَاكَ انْتَشَيْتُ	فِيهَا عَرَفْتُكَ طِفْلاً
وَلِي مِنَ الْعِزِّ بَيْتٌ ²	فِيهَا (لِيلِي) كِنَاسٌ

فتجيب عليه حبيبته (ليلي) وتبتهه على أنها جعلت حياتها وموتها تبعاً لحياته وموته، وأنها تواصل طريقته للدفاع عن الوطن المقدس قائلةً:

لَوْ تُفْتَدَى بِحَيَاتِي	مِنَ الرَّدَى لَقَدَيْتُ
وَلَوْ وَقَاكَ وَفِيَّ	بِمُهْجَةٍ لَوْقَيْتُ
إِنْ عِشْتُ أَوْ مِتُّ إِنِّي	كَمَا نَوَيْتُ نَوَيْتُ ³

¹ - عبد الرحمن إبراهيم، أحمد، (1989م)، الفضائل الخلقية في الإسلام، المنصورة: دار الوفاء للطباعة والتوزيع: ص75.

² - حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص69-70.

³ - حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص71.

ثم نرى الجريح يطلب من (ليلي) أن تحفر له قبراً في أحضان الوطن تدفنه فيه وتكتب عليه كلمات:

مَعْدُودَةٌ بِالثَّوَانِي	(ليلي) سَاعَاتُ عُمْرِي
تَقْرِي حُشَاشَةً فَأَنِي	فَكَفْكَفِي مِنْ دُمُوعِ
عَلَى دُرٍّ (لُبْنَانِ)	وَمَهْدِي لِي قَبْرًا
لِكُلِّ قَاصٍ وَدَائِي:	ثُمَّ أَكْتُبِي فَوْقَ لَوْحِ
هُنَا فَتَى الْفِتْيَانِ ¹	هُنَا الَّذِي مَاتَ غَدْرًا

يتمثل في هذه الأبيات أسمى مراتب الحب بين المتحابين ويستنبط منها أن المجتمع المثالي في رؤية حافظ يُسهم في بنائه وتكوينه رجالٌ ونساءٌ نُثِرَتْ في قلوبهم بذور المودة والمحبة.

فالمودة بين أبناء البشر - وخاصة بين الأزواج - ناتجة عن رحمة الله، آية من آياته تعالى. إذ جاء في التنزيل العزيز: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾² فكيف للمجتمع المثالي أن يكون أهلها بعيدين عن الحب والمودة؟

2. الحرية

تشكل الحرية عند حافظ إبراهيم قيمة مركزية تعبر عن أعمق آماله في تحقيق الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية وهي ليست مجرد غياب القيود أو مجرد حالة سياسية بل حق إنساني شامل يسمح للفرد بأن يحقق ذاته ويعبر عن رأيه بحرية ومسؤولية. يرى حافظ أن الحرية أساس تطور الإنسان والمجتمع وأنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالكرامة والحقوق الإنسانية، خصوصاً حرية التعبير وحرية المرأة اللتين يعالجهما بشغف في شعره تعبيراً عن رؤيته للمجتمع المثالي الذي ينشده.

تأتي كلمة الحرية في اللغة العربية من الحرّ والحرّ هو نقيض العبد؛ سحابة حرة من كثرة المطر، والحرر في بني إسرائيل: النذيرة كانوا يجمعون الولد لخدمة الكنيسة ما عاش لا يسعه تركه في دينهم، والحر فعل حسن والحرية من الناس خيارهم، والحرّ من كل شيء أعتقه، والحرّة من الوجه ما بدا من الوجنة، والحر فرخ الحمام³. فالحرية هي خاصة الكائن الذي لا يخضع للجبر ويتصرف بدون قيود وفقاً لما تمليه عليه إرادته وطبيعته⁴.

أخذ الحديث عن الحرية مساحة واسعة من اهتمامات المفكرين والفلاسفة منذ ظهور المعارف والعلوم ومناهجها في شكلها المنظم إلى يومنا هذا. وأضحت قضاياها ومسائلها موضوعاً بارزاً من لدن العلماء وهي بلا شك مطلب إنساني مهم، لا تقوم الحياة إلا بما فيها من نماء للإنسانية من فكر وقول وعمل، وهي سرّ تجدد المواهب والابداع⁵.

1- حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص71.

2- القرآن الكريم، سورة الروم 30، الآية: 21.

3- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (2003م)، كتاب العين مرتباً على حروف المعجم، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، ص303.

4- سعيد، جلال الدين، (2004م)، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، تونس: دار الجنوب للنشر، ص156.

5- نصيرة، كرمين، (2021م)، سؤال الحرية في الإسلام عند محمد إقبال، مجلة مقاربات فلسفية، (1)، ص134.

أخذت الحرية تعاريف شتى عند المفكرين والباحثين، فمنهم من قال: إنها استقلال عن أي شيء ماعدا القانون الخلقي، ومنهم من قال: إنها القدرة على التصرف طبقاً لما تحدده الإرادة. ومنهم من قال: إنها الأحوال الاجتماعية التي تنعدم فيها القيود التي تقيد الإنسان على تحقيق سعادته، ومنهم من قال إن الحرية هي الحالة التي يكون الإنسان سيد نفسه، ومنهم من قال: هي الاستقلال الذي يملكه الفرد إزاء المجتمع الذي هو جزء منه، من حيث إن هذا الاستقلال هو حق من حقوقه¹. فالحرية بمستوياتها المختلفة وتظاهراتها المتنوعة مطلب إنساني في كل المجتمعات، بحيث يمثل حضورها في الحياة المجتمعية أو غيابها عنها وضعف وجودها فيها معياراً للفرق بين المجتمعات من حيث التزامها بالعيش تبعاً لمقتضى احترام حقوق الإنسان² «فالحرية قوام كرامة الإنسان إنها كرامة وميزة إنسانية شاملة، تتأتى من خلال ممارسة الإنسان لاختياره النير، ومع أن البشر قد يمتلكونها على درجات متفاوتة فإنها ليست امتيازاً خاصاً لأي فرد، أو جنس، أو طبقة وتنمية الحرية لا تفضل الإنسان عن رفاقه، ولكنها توحى بالقرابة العالمية لذلك فإن ممارستها هي دعوة إنسانية شاملة».

الحرية بالمعنى العام: هي حالة الإنسان الذي لا يتحمل أي قسر، والذي يتصرف وفقاً لإرادته وطبيعته. وبالمعنى الاجتماعي: تعني المقدرة على القيام بكل ما لا يمنعه القانون، وبرفض ما يحرمه هذا القانون³.

وبالمعنى السياسي: تصبح الحرية مجموعة الحقوق المعترف بها للفرد، والتي من سلطة الحكومة. وبالمعنى السيكولوجي والأخلاقي: هي حالة ذلك الإنسان الذي لا يقدم على أي عمل خيراً أو شراً، إلا بعد تفكير عميق وإدراك كلي للأسباب والدوافع التي جعلته يقوم بهذا التصرف⁴.

بالنظر إلى هذه التعاريف المشتتة المتناثرة لمفهوم الحرية قد يصعب على المتلقي إدراك هذا المفهوم العام المعقد. فمن الواجب أن يلقى ضوء على ما يقصده المؤلف من الحرية المعنوية بالمجتمع المثالي في شعر حافظ إبراهيم توطئة للبحث. إن القصد من الحرية في هذا البحث هي التي تتحدد في إطار منطقي معقول، وتنسجم مع قوانين الشريعة الإسلامية وأصولها منها: حرية التفكير، حرية الرأي، حرية التعبير وحرية المرأة وغير ذلك.

كان الشعب العربي ذاق طعم الاستبداد الداخلي تحت سيطرة الحكم العثماني منذ سنوات، «وفي أواخر القرن التاسع عشر ابتليت مصر بمصيبة الاستعمار الخارجي، شأن باقي البلدان في أوائل القرن العشرين»⁵. ففي هذه الحقبة من الزمن شعر حافظ إبراهيم بانعدام الحرية بأبعادها المختلفة في المجتمع المصري. فأخذ يثور على سلطات الحكم العثماني ويدين كيفية معاملتهم مع التيارات السياسية الموجودة آنذاك. بتعبير آخر كان حافظ يعاني من فقدان الحرية في المجتمع وعلى وجه التحديد حرية التعبير، وأضاف إلى ذلك أن حرية المرأة أيضاً كانت من القضايا التي أولاها حافظ اهتماماً كبيراً مبدئياً

¹ - بركات، سليم ناصر، (1984م)، مفهوم الحرية في الفكر العربي الحديث، ط2، دمشق: دار دمشق، ص25.

² - برحمة، آمال، (2018م)، الاتجاه الإنساني في أدب فيكتور هيغو وحافظ إبراهيم دراسة مقارنة، مجلة البدر 10(10)، ص1246.

³ - زروقي، ثامر، (2024م)، موقف "زكي نجيب محمود" من مسألة الحرية، مجلة رفوف، (1)12، ص1176.

⁴ - خضر، خضر، (2008م)، مدخل إلى الحريات العامة وحقوق الإنسان، ط3، بيروت: المؤسسة الحديثة للكتاب، ص23.

⁵ - أبو الشهاب، واصف، (1988م)، القديم والجديد في الشعر العربي الحديث، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ص11.

فيها آرائه التي نشرها بالتفصيل. إذن، نحن في هذا البحث بصدد إلقاء ضوء على ما قاله حافظ في حرية التعبير وحرية النساء باعتبارهما بُعدين من مفهوم الحرية التي تعدّ من المقومات الرئيسة للمجتمع المثالي عنده.

أولاً. حرية التعبير

يرى حافظ أن الصحف الشعبية التي تنتشر يومياً بمثابة مرآة تجسّد ما يظهر في المجتمع بكل تفاصيلها تجسّداً واضحاً. وإذا ما ظهر في المجتمع ملامح الظلم والاستبداد الداخلي أو الاستعمار الخارجي فأول وسيلة يتمسك بها المفكّرون والمنظّرون لتوعية فكر الجمهور هي الصحف اليومية؛ الصحف التي ينظر إليها حافظ على أنها تُؤاسي الشعب وتسليّ آلامهم، انظر إلى ما يقول:

كَانَتْ تُؤَاسِينَا عَلَى الْآمِنَا صُحُفٌ إِذَا نَزَلَ الْبَلَاءُ وَأَطْبَقَا
كَمْ نَقَسْتِ عَنْ صَدْرِ حُرٍّ وَاجِدٍ لَوْلَا الصِّمَامُ مِنَ الْأَسَى لَتَمَزَّقَا¹

فحينما يجدها _أي: الصحف_ مغلقة الأبواب يلهم عليها وينوح قائلاً:

مَالِي أَنْوُحُ عَلَى الصَّحَافَةِ جَازِعاً؟ مَاذَا أَلَمَ بِهَا وَمَاذَا أَحْدَقَا؟
فَصُؤَا حَوَاشِيَهَا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أَمِنُوا صَوَاعِقَهَا فَكَانَتْ أَصْعَقَا²

لأنّ إغلاق الصحيفة يدلّ على فقدان حرية التفكير والرأي، ثم يدلّ على انعدام حرية التعبير. فهل يمكن افتراض مدينة مثالية قد فُرض على أهلها ألا يفكّروا ولا يرتأؤوا ولا يعبروا إلا عما يُعجّب به السُلطات؟! تُبرز هذه الرؤية مدى إيمان حافظ بدور الصحافة كأداة نضالية تعبّر عن صوت الشعب وهمومه، وتُجسّد منبراً للتنفيس عن آلام الحرية المكبوتة. إنّه يرى في إسكاتها إغلاقاً لمنافذ التعبير، بل إعداماً فكرياً يُجهز على أيّ حلم ببناء مجتمع عادل. ومن خلال تشبيهه للصحف بـ"الصمام" الذي يمنع انفجار الأسى في صدور الأحرار يلحّ على أن الحرية ليست ترفاً بل ضرورة حيوية تحفظ توازن النفس والمجتمع. وفي نقده اللاذع لمحاولات تقييد الصحافة يُظهر وعيه العميق بأن المجتمع المثالي لا يمكن أن تقوم إلا على أساس حرية التفكير والتعبير، لا على الاستبداد المصقول بمظاهر زائفة من التقدّم. ومن ثمّ، فإن إغلاق الصحف أو تكميم أصواتها يمثّل بالنسبة إليه نكسة حضارية تسلب الإنسان كرامته وعقله وتحوّل المدينة من فاضلة إلى قمعية.

ثانياً: حرية المرأة

كانت قضية حرّية المرأة وحدودها ولا تزال من القضايا التي تلفت الانتباه إلى كثيرين من العلماء والأدباء المفكّرين، وقد كثر الأخذ والردّ فيها بينهم؛ ومن الواضح فيما يمرّ بنا من أزمات تنطوي على آراء حافظ في قضية النساء أنه اتخذ موقف التوسّط في شأن حرية المرأة بعيداً عن الإفراط والتفريط، إذ «يرفض السماح للمرأة أن تخوض سافرة معترك الحياة

1- حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص59.

2- حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص60.

وتصنع صنيع الرجل»¹. فالحرية المطلقة الليبرالية واختلاط النساء السوافر بالرجال في الشارع العام وتتركهم يفعلون ما يشاؤون تؤدي في النهاية إلى زعزعة أركان الأسرة وهي مدعاة لنشر الفساد في المجتمع؛ كما يرفض إلى جانب هذا، التشديد في أمر الحجاب وتضييق العيش على النساء المحجبات:

أنا لا أقول دَعُوا النِّسَاءَ سَوَافِرًا بَيْنَ الرِّجَالِ يَجْلُنَ فِي الْأَسْوَاقِ
كَلَّا وَلَا أَدْعُوكُمْ أَنْ تُسْرِفُوا فِي الْحُجْبِ وَالتَّضْيِيقِ وَالْإِزْهَاقِ²

إنه يوجه كلامه إلى الرجال قائلاً: «خذوا حرية النساء بنظر الاعتبار ولا تحملوهن ما لا يُطِيقن كما كان في العصر الجاهلي ولا تعاملوهن كالأشياء القيمة لأنهن موجودات ذات حرية ولذلك لا يمكن سلب هذا الحق منهن والمسألة المهمة الأخرى هي أن الدول كملت وتغيرت عقائدها وسلوكها تغييراً طيباً إثر هذا التكامل. فعلى هذا الأساس يجب أن يترك التطرف والمبالغة والعصبية جانباً ويوضع الاعتدال في رأس الأمور»³.

فَتَوَسَّطُوا فِي الْحَالَتَيْنِ وَأَنْصِفُوا فَالْشَّرُّ فِي التَّفْسِيدِ وَالْإِطْلَاقِ⁴

«أغنى عن الذكر أن الحرية المحدودة غير مرفوضة في مختلف العقائد القيمة ورمز بقاء الحرية في المجتمع هي الحياة في إطار القوانين الراقية ولا يمكن الحصول على الحرية الحقيقية دون القوانين المترقية والمؤدية إلى الكمال أبداً، وذلك لأن الحرية التي لا تتبع احترام القوانين الاجتماعية تؤدي إلى الأسر في قيود الفساد والظلم والاستبداد في النهاية؛ حرية المرأة في المجتمع تشمل هذا التفسير من الحرية أيضاً يعني حرية المرأة في المجتمع تسوق الجماهير نحو مستنقع الشذوذ الجنسي وأسر الفكر وتهديد الحياة الاجتماعية السليمة ويؤدي إلى الاضمحلال وفساد الروح والنفس والفكر»⁵. يقول ويل دورانت أيضاً إن حرية المرأة هي نتيجة التطورات الاقتصادية ولا دور لها في هذه المسألة. وعلى حد تعبير برتراند راسل أن «النساء الغربيات في العصر الجديد استطعن الحصول على الحرية شيئاً فشيئاً بواسطة القضاء على الإحساس بالذنب فقط»⁶. وبسبب وجود هذه الأفكار انحرفت المرأة الغربية عن الطريق الذي اختاره الله لها وليس فقط لم تنل الحرية الحقيقية بل أصبحت أداة لإشباع الغريزة الجنسية للرجال بشكل غير مشروع⁷. قصارى القول أن موقف حافظ إبراهيم من حرية المرأة وحدودها في المجتمع المثالي يتفق ومبادئ الشريعة الإسلامية مرتكزاً عليها مع مسحة من التسامح والتساهل بعيداً عن الإفراط والتفريط.

¹ - محمود عبد الله، د.ت، حافظ إبراهيم دراسة تحليلية لسيرته وشعره، الإسكندرية: دار الفارابي للنشر والتوزيع، ص92.

² - حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج2، القاهرة: دار المعارف، ص282.

³ - ميرمناز، أكرم السادات، (1426ق)، نقد قصيدة البنات للشاعر الكبير حافظ إبراهيم، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، العدد 10، معهد العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية، ص402.

⁴ - حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج2، القاهرة: دار المعارف، ص283.

⁵ - هاشمي ركاوندي، (1378ش): مقدمه ای بر روان شناسی زن با نگرش علمی و اسلامی، قم: نشر شفق، صص241-242.

⁶ - المصدر نفسه، صص247-249.

⁷ - ميرمناز، (1428ق)، نقد قصيدة البنات للشاعر الكبير حافظ إبراهيم، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، العدد 10، معهد العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية، ص410.

3. الوحدة الوطنية والتسامح الديني

يُعدّ مفهوم الوحدة الوطنية والتسامح الديني من أهم الركائز التي يوليها حافظ إبراهيم اهتماماً بالغاً في شعره، حيث يرفض بشدة كل أشكال الانقسام الطائفي والعنصري التي تضعف نسيج المجتمع. إذ يرى أن التضامن والوحدة بين أفراد الأمة، مهما اختلفت معتقداتهم، هما السبيل لضمان الاستقرار والسلام الاجتماعي. لذلك، يعمل حافظ من خلال شعره على تعزيز قيم التسامح والاحترام المتبادل، مؤكداً أن المجتمع المثالي لا يمكن أن يتحقق إلا بالتوافق والانسجام بين أبنائه، بعيداً عن النزاعات والصراعات التي تزعزع أركانه.

وَيَدُ إِلَهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ فَاضْرِبُوا
بَعْصَا الْجَمَاعَةِ تَظْفَرُوا بِنَجَاحٍ¹

صارت كلمة الوحدة من الكلمات المتداولة على ألسن السياسيين والعسكريين وعامة الناس في مختلف البلدان، بل في كتابات الباحثين والمثقفين؛ مما يعني أن لهذه الكلمة قيمة واقعية وأثراً مستقبلياً لمن يريد أن يعيش الوحدة قولاً وفعلاً، وخير دليل على القيمة الحقيقية لمفهوم الوحدة هو التطبيق الفعلي المفهوم الوحدة في عصر الحضارة الإسلامية التي امتلكت قوتها من ذاتها لأنها تعتمد على أسس متينة من الدعائم الروحية والخلقية والفكرية، حيث استطاعت الخلافة الإسلامية حفظ وحدة الأمة الإسلامية إلى قبيل سقوط الخلافة العثمانية².

ومن بين التعريفات التي وضعت للفظه الوحدة أنها كون الشيء بحيث لا ينقسم، وتطلق ويراد بها عدم التجزئة والانقسام ويكثر إطلاق الأحد والفرد بهذا المعنى³.

وعرفت الوحدة كذلك بأنها اتحاد الدول أو البلاد، والأفراد والجماعات في سائر أمور حياتهم ومعاشهم وسيرتهم وغايتهم، وبموجب هذه الوحدة يصبح الجميع شيئاً واحداً أو أمة واحدة⁴.

كانت الوحدة الوطنية وما زالت أهم القضايا وأشدّها حرجاً في حياة المصريين. والاختلاف بين العقائد في أيّ مجتمع، بابّ يمكن لقوى الشرّ أن تدلف منه، إذا لم يُحكم غلقه. ومن يوم لآخر يتجدّد الصراع في مجتمعات عديدة بسبب ما بين أبنائها من اختلاف في الأجناس والعقائد والألوان والتوجهات، ولا سبيل تقتل هذه العصبية الضاربة بمحذورها في أعماق النفس البشرية، وإن كان من الممكن كبح جماحها⁵.

والأدباء المنوّرون والمثقفون باعتبارهم طلائع المجتمع الذي فيه يعيشون يضطلعون بمسؤولية عظيمة لبند الخلافات وتعزيز الأواصر الودّية بين الأديان السماوية المختلفة لنشر بذور الوحدة الوطنية بين أبناء الشعب.

¹ - حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص102.

² - مسعودي، عبد القادر، (2022م)، مقصد الوحدة بين نداءات الشرع وتداعيات الواقع، مجلة المعيار، (36)26، ص154.

³ - الكفوي، أبو البقاء، (د ت)، الكليات، بيروت: مؤسسة الرسالة، ص931.

⁴ - مختاري، نزيهة، بروال، أحمد، (2019م)، مشروع الوحدة الإسلامية دراسة تحليلية لأعمال ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر، مجلة الإحياء، (2)19، ص507.

⁵ - محمود عبد الله، السعيد، (د.ت)، حافظ إبراهيم دراسة تحليلية لسيرته وشعره، الإسكندرية: دار الفارابي للنشر والتوزيع، ص92.

«وما إن بزغ فجر النهضة في الأدب العربي الحديث حتى تضافر عدد الأدباء لإنجاز هذه المهمة الخطيرة، ومنهم حافظ إبراهيم الذي كان له إسهام بارز في هذه الحركة. خاصة إنه كان على مودة مع كثير من الأقباط، وكان يحضر معهم في المحافل وليالي السمر. فيقول لهم الشعر والنادرة، وإذا كان يغيب عنهم، يفتقدونه ويلتمسون أخباره»¹. «إن حافظاً يحارب التناحر الطائفي الذي يقوّض أركان الوطن، ويقضي على الروح الوطنية الحقيقية، بل يقضي على الدين نفسه. وهو من ثمّ يدعو إلى وطنية متماسكة، تستطيع بتماسكها أن تصمد في وجه أعداء الوطن»². «إنه كان يحسنّ بالخلل والاختلاف الذي ظهر في الأمة، فيستحثّ الخديوي عباس الثاني لسدّ هذا الخلل بقوله»:

مَوْلَايَ! أَمُتُّكَ الْوَدِيعَةُ أَصْبَحَتْ وَغَرَى الْمَوَدَّةَ بَيْنَهَا تَقَفَّصَ
فَهَمُّوا مِنَ الْأَدْيَانِ مَا لَا يَرْتَضِي دِينَ وَلَا يُرْضَى بِهِ مَنْ يَفْهَمُ³

بتعبير آخر يذهب حافظ إلى أن الشجار والصدام بين أصحاب الديانات والعقائد المختلفة لا مكانة لها في المجتمع المثالي الذي كان بصدده. والمجتمع يقترب من الكمال والمثالية بقدر ما يبتعد عن التشدد والعصبية. لأنهما مما يبدد أواصر الوحدة والصداقة بين أفراد الشعب.

كان حافظ يرى اختلاف الأديان لا يجب أن يكون سببا في تكدير الحياة؛ لأنه يمكن أن يثير الفتن ويحدث الشغب. ولم يفتأ يهيب بالمسلمين والمسيحيين في كل بلد عربيّ لا في مصر وحدها. أن يطهروا قلوبهم من الأحقاد. فيقول لأبناء لبنان:

يَا قَوْمَ إِنْجِيلَ عَيْسَى وَأَمَّةَ الْقُرْآنِ
لَا تَقْتُلُوا الدَّهْرَ حَقْدًا فَالْمُلْكُ لِلدِّيَانِ⁴

إذ كما يتبيّن في البيت الأخير إنه يعتقد بأن العصبية الدينية ناتجة عن الفهم الناقص لمفهوم الديانة، ومن وقف على غاية الدّين والإنسانية لا يُعجب بما يجري حوله من العصبية الدينية التعسّفية التي تنشر بذور التفرقة والشقاق في المجتمع البشري بين أصحاب مختلف الأديان السماوية، «لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً»⁵ فيُخاطب الأقباط نيابةً عن المسلمين قائلا:

إِنِّي ضَمِينُ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعُهُمْ أَنْ يُخْلَصُوا لَكُمْ إِذَا أَخْلَصْتُمْ⁶

في هذا البيت، يتحدّث حافظ إبراهيم بلسان المسلمين موجّهاً خطابه إلى الأقباط في موقفٍ وطني نبيل يعبر فيه عن وحدة المصير بين أبناء الوطن الواحد رغم اختلاف الدين. فهو يُقدّم نفسه كضامنٍ لإخلاص المسلمين في حال أخلص الأقباط، ممّا يدلّ على أن العلاقة بين الطوائف تقوم، في نظره، على الاحترام المتبادل والثقة المشتركة. وهذا الخطاب

¹ - الروماني، جمال الدين، (د.ت)، من أعلام الأدب المعاصر، القاهرة: دار الفكر، ص103.

² - الفاخوري، حنا، (1986م)، الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب الحديث، بيروت: دار الجيل، ص146.

³ - برياني شال، علي وأميدوار، أحمد، (1389)، تأثير آراء محمد عبده في أشعار حافظ إبراهيم الدينية، مجلة بحوث في اللغة العربية وآدابها، 3، ص28.

⁴ - حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص26.

⁵ - القرآن الكريم، النحل، 16، الآية 93.

⁶ - حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج2، القاهرة: دار المعارف، ص292.

ينهض على مبدأ المواطنة قبل أي اعتبار ديني، ويؤسس لفكرة الانتماء إلى وطنٍ مشترك يُبنى على الوفاء والتعاون. وفي غير هذا الموضع نرى حافظاً يوجه أخلص مراتب ودّه من صميم القلب إلى أبناء سورية ويمدّ إليهم يد الصداقة والإخاء مشيداً بهم وبأبناء وطنه:

لِمَصْرٍ أَمْ لِرُبُوعِ الشَّامِ تَنْتَسِبُ هُنَا الْعِلَا وَهَنَّاكَ الْمَجْدُ وَالْكَسْبُ
خَدْرَانِ لِلضَّادِ لَمْ تُهْتِكِ سُتُورُهُمَا وَلَا تَحُولُ عَنْ مَعْنَاهُمَا الْأَدَبُ¹

يتأمل الشاعر في العلاقة الثقافية والحضارية بين مصر وبلاد الشام، متسائلاً _بصيغة بلاغية_ هل ينتمي هذا المجد إلى مصر أم إلى الشام؟! ثم يُجيب بأن العُلا والمجد والكسب قد توزعت بين الطرفين. ثم يشيد بالمكانة المشتركة لهاتين المنطقتين في حفظ اللغة العربية (الضاد)، مشبهاً إياهما بجدرٍ (ستار أو حجاب) لم يُهتك، في دلالة على صون الأدب العربي فيهما. هذا المقطع يُظهر اعتزاز حافظ بالآرث الثقافي والحضاري المشترك بين البلدان العربية، ويرى أنّ الوحدة اللغوية والأدبية هي أحد أعمدة هذه الرابطة القومية.

ويصوّر الوحدة العربية بين أقطار العالم العربي من غربه إلى شرقه تصويراً في غاية الروعة والجمال، حيث يقول:

إِذَا أَلَمْتُ بِوَادِي النَّيْلِ نَازِلَةً بَاتَتْ لَهَا رَاسِيَاثُ الشَّامِ تَضْطَرِبُ
وإن دَعَا فِي ثَرَى الْأَهْرَامِ ذُو أَلَمٍ أَجَابَهُ فِي دُرَا لُبْنَانَ مُنْتَحِبُ
لَوْ أَخْلَصَ النَّيْلُ وَالْأُرْدُنُّ وَدَّهْمَا تَصَافَحَتْ مِنْهُمَا الْأُمُورُ وَالْعُشْبُ²

هذا المقطع يُعتبر من أروع ما كتبه حافظ في تجسيد الوحدة الشعورية والجغرافية بين أقطار الأمة العربية. فهو يصف تفاعل الشام مع أوجاع مصر وكأنها جزء من الجسد الواحد؛ إذا مرض طرفٌ، اهتزّ الآخر. وتكتمل الصورة حين يُنادي المتألم من الأهرام فيُجيب من أهالي لبنان، ما يوحي بوحدة وجدانية عميقة. أما البيت الأخير، فيرسم صورة شعرية لتلاحم الأنهار والنباتات بين النيل والأردن كنايةً عن الودّ الصافي الذي إن تحقق، التقى كل شيء في تناغم وانسجام. هنا تتجلى رؤية الشاعر لوحدة عربية لا تقوم على القرار السياسي فحسب، بل على المودة الصداقة التي تصل بين الشعوب كما تصل المياه بين الأنهار.

ثم يدعو أبناء الشام للتعاون والتضامن الأكثر معترضاً على الرجال السياسيين الذين يراهم من الذين يسببون التفرقة بين البلدان العربية بانتهاجهم سياسة التشدد والعزلة:

هَذِي يَدِي عَنْ بَنِي مِصْرٍ تُصَافِحُكُمْ فَصَافِحُوهَا تُصَافِحِ نَفْسَهَا الْعَرَبُ
لَوْ لَا رِجَالٌ تَعَالَوْا فِي سِيَاسَتِهِمْ مِنَّا وَمِنْكُمْ لَمَّا لُمْنَا وَلَا عَتَبُوا
إِنْ يَكْتُبُوا لِي ذَنْباً فِي مَوَدَّتِهِمْ فَإِنَّمَا الْفَحْرُ فِي الذَّنْبِ الَّذِي كَتَبُوا³

1- حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج2، القاهرة: دار المعارف، ص268.

2- المصدر نفسه، ص269.

3- المصدر نفسه، ص271.

يبدأ الشاعر بدعوة صريحة إلى الأخوة العربية متمثلةً في المصافحة بين مصر والشام لكنه لا يراها مجرد مصافحة بين بلدين، بل فعل رمزي تتجلى فيه وحدة العرب جميعاً. فاليد التي تمتد من مصر هي يد الأمة والمصافحة تعني المصالحة، والمحبة، وبداية عهد جديد.

إذا ما تناولنا موقف حافظ من الوحدة بين أبناء الوطن نلاحظ أنّ الوحدة الوطنية من منظوره بمثابة حياة المجتمع، وانعدامه بمثابة موته حيث يقول:

هَلَاكَ الْفَرْدِ مَنْشُؤُهُ تَوَانٍ وَمَوْتُ الشَّعْبِ مَنْشُؤُهُ انْقِسَامٌ¹

فحينما يجد المعركة بين الأحزاب السياسية عنيفة تمسّ بالوحدة الوطنية لا يتيمن بذلك، إذ يرى أن التفرقة تمهد الطريق لتدخل الأجانب في الشؤون الداخلية:

وَأَنَا قَدْ وَنِينَا وَانْقَسَمْنَا فَلَا سَعْيَ هُنَاكَ وَلَا وَثَامٍ
فَسَاءَ مُقَامُنَا فِي أَرْضٍ (مِصْرٍ) وَطَابَ لِعَيْرِنَا فِيهَا الْمُقَامُ²

فيخاطب رئيس مجلس الشورى في قصيدته المنشورة سنة 1909م طالباً إياه إلى إفاضة روح الوثام والوحدة بين حزبي اليمين والشمال من جديد:

أَفِضْ فِي قَاعَةِ الشُّورَى وَثَامَا فَقَدْ أَوْدَى بِنَا وَبَهَا الْخِصَامُ
فَفِي حِزْبِ الْيَمِينِ لَدَيْكَ قَوْمٌ وَإِنْ قُلُوا فَإِنَّهُمْ كِرَامٌ
وَفِي حِزْبِ الشِّمَالِ لَدَيْكَ أَسَدٌ كُفَاةٌ لَا يَطِيبُ لَهَا اتِّهَامٌ³

طبعي أن تختلف الآراء من حزبٍ إلى حزبٍ، ومن جناحٍ إلى جناحٍ، ومن شخصٍ إلى شخصٍ؛ ولكن المهم هو أن يشعر كل شخص من أبناء الشعب بالحرية في التعبير عن رأيه ووجهة نظره للأوضاع السائدة في المجتمع، وفي المرتبة الثانية أن لا يكون أصحاب بعض الأحزاب والأجنحة السياسية بصدد تشويه وجوه بعض آخر، بدلا أن يكونوا بصدد تدعيم موقفهم بأدلة سديدة تُقنع الآخرين.

إذ يرى شاعر النيل أن احتدام معركة الصدام بين الأحزاب يحفز العدو الأجنبي على أن يغتنم الفرصة للتدخل في شؤون البلاد، إذ يلمح بقوله إلى اختلاف الأحزاب السياسية:

أَسَاءَ بَعْضُ النَّاسِ فِي بَعْضِهِمْ ظَنًّا وَقَدْ أَمْسَوْا وَقَدْ أَصْبَحُوا
فَانْتَهَزَتْ أَعْدَاؤُنَا نَهْزَةً فِينَا وَمَا كَانَتْ لَهُمْ تَسْنَحٌ⁴

ثم يهيب بهم إلى إحلال التعاون والتآزر محلّ العداوة والتعنّت داعياً زعماء السياسة إلى التصافح وترك التشدد على الذين قد يزلّ بهم الأقدام، فربّما لم يكونوا متعمدين:

1- المصدر نفسه، ص55.

2- المصدر نفسه، ص55.

3- حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج2، القاهرة: دار المعارف، ص56.

4- المصدر نفسه، ص97.

وَاصْفَحُوا عَنْ هِنَاتٍ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ رَبُّ هَافٍ هَفًا عَلَى غَيْرِ عَمْدٍ¹

في هذا البيت، يدعو الشاعر بوضوح إلى التسامح والتغاضي عن الزلات، خصوصاً إذا كانت غير مقصودة. يستخدم تعبير "هِنَاتٍ" للإشارة إلى الأخطاء الصغيرة، ويؤكد أن الإنسان قد "يهفو" أي يخطئ دون قصد. إنه نداء أخلاقي وإنساني موجّه للقادة والساسة بأن يقدموا روح الصفح على سياسة العداة والإقصاء. فالصفح سبيل للمّ الشمل، وحسن الظن بالآخرين قد يكون مفتاحاً لحل الخلافات المتراكمة. وكل هذا لكي لا يتيسّر النجح للأعداء في نثر بذور الشقاق والفرقة بينهم:

فَلَرَأَيْ كُلِّ الرَّأْيِ أَنْ تُجْمِعُوا فَأَنْمَا إِجْمَاعُكُمْ أَزْجَحُ
وَكُلُّ مَنْ يَطْمَعُ فِي صَدْعِكُمْ فَإِنَّمَا فِي صَخْرَةٍ يَنْطَحُ²

يتجلّى في هذا البيت منتهى الحكمة السياسية إذ يعتبر الشاعر أن الرأي السديد، بل الرأي كله، يكمن في الاجتماع والوحدة. ومقابل ذلك، فإن التفرّق يُعدّ مَظَنَّةَ الضعف والخسران. كما أن استخدامه لكلمة "أزجح" يدلّ على تَفَوُّق الوحدة على أيّ خيار آخر. هذا البيت يُعتبر بمثابة قاعدة ذهبية في الفكر السياسي والاجتماعي، تدعو إلى تغليب مصلحة الجماعة على خلافات الأفراد.

هذا وإنّ حافظاً كان معجباً باليابانيين أشدّ الإعجاب، الذين صعدوا مراتب الرقيّ واحد تلو الآخر؛ فيتّخذهم مثله الأعلى في قسطٍ من أشعاره، ويدعو أبناء وطنه إلى أن يسلكوا سبيل التقدّم الذي قد انتهجه الشعب الياباني منذ سنين، معترفاً بأنّ المحاولة لترقية المجتمع إلى ذرى الكمال تُثمر بالوحدة والتضامن الوطني، فيقول:

وَهَا أُمَّةٌ (الصُّفْرُ) قَدْ مَهَّدَتْ لَنَا النَّهْجَ فَاسْتَبَقُوا السُّمُورَ³
فَيَا أَيُّهَا النَّاشِئُونَ اْعْمَلُوا عَلَى خَيْرِ مِصْرٍ وَكُونُوا يَدًا⁴

يشير الشاعر إلى اليابان بـ"أمة الصفر"، وهو تعبير شاع في عصره نتيجة للرمز الشمسي في علم اليابان. فيتحدث بإعجاب عن النهضة اليابانية، ويرى فيها دليلاً حياً على أن الأمم الشرقية قادرة على اللحاق بركب الحضارة. يقول إن اليابانيين لم يكتفوا بالتقدّم، بل مهّدوا الطريق لغيرهم، وتفوّقوا في السباق إلى منابع التقدّم في هذا البيت إشادة واضحة بروح العمل والاعتماد على الذات، إلى جانب نبرة تحفيزية موجهة للقراء بأن يستلهموا هذا النموذج.

4. الاستقلال

لا يمكن لأيّ مجتمع أن يتحقّق له الوجود الحرّ والمستقلّ إلا عندما ينال استقلاله الكامل؛ فقد كان فقدان الاستقلال بالنسبة لحافظ إبراهيم هو بداية مرحلة الظلم والقهر التي حاصرت المجتمع وأحبطت تطاعاته. الاستقلال بالنسبة له هو

¹ - المصدر نفسه، ص 93.

² - المصدر نفسه، ص 97.

³ - يريد بأمة الصفر: اليابانيين؛ وثمّنوا بذلك للوهم.

⁴ - حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج 2، القاهرة: دار المعارف، ص 263.

الشرارة التي توقظ الأمة من سباتها الطويل، وهو الجوهر الذي تُبنى عليه الحياة الحرة الكريمة. غياب الاستقلال يعني استمرار التبعية والظلام، واستعادة الاستقلال تعني ولادة جديدة تحمل معها الأمل والتقدم والكرامة.

في المشرق العربي سيطر الأتراك سيطرة تامة على مدى قرون طويلة من 1258م إلى 1798م وأخضعوا شعوبها بحكم وحدة الدين لسيطرة مطلقة بعيدة عن كل شعور ودّي أو إحساس أخويّ صادق، الأمر الذي دفع شعوب هذه المنطقة للثورة والتمرد والوقوع في شرك استعمار أمرّ وأدهى، وهو الاستعمار الغربي (الفرنسي أولاً ثم الإنجليزي) سنة 1798م إلى 1952م¹. ومن جرّاء هذا، كانت مصر باعتبارها أكبر حضارة عربية تتعرض ثرواتها وأبنائها للاستنزاف والاعتداء من جانب الاستعمار الأجنبي وعلى وجه الخصوص الاستعمار الغربي. فاشتدّ على مرّ الزمن غضب جماهيريّ شامل في قلوب الشعب المصري على أعدائهم المحتلين حتى انفجرت الضغائن في القرن العشرين وأخذ الشعب يكافح لاستعادة مجدهم الفاتح.

«فكانت مصر أوّل من حاول التخلّص من هذا الكابوس، ولم تحصل على بعض من حرّيتها واستقلالها إلا بعد نضال طويل وتضحيات كبيرة، ولم تتخلّص نهائياً من كلّ ما هو أجنبيّ وغريب عنها إلا بعد ثورة عام 1952م»². ومما هو خليق بالإشارة أن أول مبادرة جدّية في طريق التحرير قام بها سعد زغلول زعيم الحركة الوطنية المصرية بمساعدة عدلي يكن رئيس الوزراء في الربع الأول من القرن العشرين، إلى درجة: «رأت الحكومة البريطانية أن سعد زغلول وزملاءه يمثلون العقبة الحقيقية في الوصول لاتفاق بين الحكومتين المصرية والبريطانية ولذا أصرت على نفي سعد. فنفي إلى عدن، ثم نُقل منها إلى سيشيل ونقل بعد ذلك إلى جبل الطارق. وإزاء إصرار إنجلترا على هذا الإجراء قدّم عدلي يكن استقالة وزارته بعد عودته مباشرة من لندن. وفي 28 فبراير 1922م صُدر تصريح بريطاني في كلّ من لندن والقاهرة. في هذا التصريح اعترفت إنجلترا أن مصر دولة مستقلّة ذات سيادة، وانتهت بذلك، الحماية التي كانت قد فرضتها على مصر»³. تصريح 28 فبراير وإن لم يحقق حصول المصريين على الاستقلال المطلق، بما فيه من تحفّظات وشروط مفروضة غير عادلة من جانب الإنجليز، ولكنه كان بداية لبزوغ تباشير الاستقلال الوطني الذي تكامل بعد سنوات غير طويلة. أشرنا إلى نبذة عن كيفية واقع المجتمع المصري وانتمائه للأجانب في قرونه الأخيرة توطئة للبحث في مفهوم الاستقلال وأهميته في بناء المجتمع الذي يرومه شاعر النيل.

تجدر الإشارة بأنه بلغ استقلال المجتمع باعتباره من مقومات المجتمع المثالي عند حافظ إلى درجة من الأهمية لا حدّ لها. إذ إنه يرى الاستقلال بمثابة ضوء الشمس التي تحيا بحياتها الأشياء، وتنشأ منها قوّة كلّ حركة تقوم أركان المجتمع أكثر مما كان عليه من قبل. فانعدام الاستقلال في مصر على رأي حافظ ليس إلا اشتغال ظلمة الليل التي أهدت بكلّ شيء وليس لها عهد قريب بالصبح الذي يبدها وينور أرجاء البلاد:

1- أبو الشباب، واصف، (1988م)، القديم والجديد في الشعر العربي الحديث، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ص10.

2- المصدر نفسه، ص10.

3- الجمل وإبراهيم، (1997م)، تاريخ مصر المعاصر، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص23.

يَا سَاهِدَ النَّجْمِ هَلْ لِلصُّبْحِ مِنْ خَيْرٍ إِنِّي أَرَاكَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الضَّجَرِ
أَظُنُّ لَيْلَكَ مُذْ طَالَ الْمُقَامُ بِهِ كَالْقَوْمِ فِي مِصْرَ، لَا يَنْوِي عَلَى سَفَرٍ¹

إنه يعبر عما يجيش في كمون ذاته من الهواجس في شأن قضية الاستقلال ويخلع على كلامه صوراً خيالية تزود النص بتأثير أكثر وأعمق في المتلقي؛ ثم يتابع ويقول في هذا المضمون على نحو رائع:

أَقْضِيهِ فِي الْأَشْوَاقِ إِلَّا أَقْلَهُ بَطِيءٌ سُرَى أَبْدَى إِلَى اللَّبْثِ مَيْلَهُ
وَلَيْسَ اشْتِيَاقِي عَنْ غَرَامٍ بِشَادِنٍ وَلَكِنَّهُ شَوْقُ امْرِئٍ قَاتِ أَهْلَهُ
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ أَعَزَّتْ نُجُومُهُ تَوَقَّدَ أَنْفَاسِي وَعَانَيْتُ مِثْلَهُ
وَمَلَّ كِلَانَا عَنْ أَخِيهِ وَهَكَذَا إِذَا طَالَ عَهْدُ الْمَرْءِ بِالشَّيْءِ مَلَّهُ²

يتبين في هذه الأبيات التمثيلية شدة لوعة حافظ لتحرير وطنه واستقلاله للتخلص من نير الاحتلال والاستعمار الأجنبي، إذ نراه مشغولاً بإزالة ظلمة الليل وهو انتماء الوطن للأجانب وتمهيد الطريق لتوجهه نحو عصوره المثالية. وفي غير هذا الموضوع نلاحظ أن لتصريح 28 فبراير الذي أشرنا إليه فيما سبق، له تأثير ملفت على الشاعر ولوح بصيص من الأمل الضائع في قلبه من جديد.

وما يدل على ذلك قصيدة له سماها باسم هذا التصريح نفسه مصوراً فيها ملامح المجتمع المستقل تصويراً خيالياً رائعاً، معترفاً بأنه في الشك من تحقق الاستقلال الوطني أو بقاء الانتماء. إذ لا يرى تفتح الأزهار، ولا يشم نفحة الرياض، كما لا يشاهد تخليق الطيور في سماء الوطن. وتعبير آخر يبدو له غريباً أنه لا يلمس ملامح استقلال وطنه مصر رغم صدور التصريح:

تصريح 28 فبراير

مَا لِي أَرَى الْأَكْمَامَ لَا تُفْتَحُ؟ وَالرَّوْضَ لَا يَذْكُو وَلَا يُنْفَخُ؟
وَالطَّيْرُ لَا تَلْهُو بِتَدْوِيمِهَا؟ فِي مُلْكِهَا الْوَاسِعِ أَوْ تَصَدَّحُ؟
أَلَمْ يَجِئْهَا نَبَأُ جَاءَنَا بَأَنَّ مِصْرًا حُرَّةً تَمْرَحُ؟³

ثم يصرح بهذا التردد في شأن التصريح ودوره في تحقيق الاستقلال الوطني، حيث يقول:

أَصْبَحْتُ لَا أَدْرِي عَلَى خَبْرَةٍ أَجَدْتُ الْيَوْمَ أَمْ تَمْرَحُ؟
أَلَمْحُ لِاسْتِقْلَالِنَا لَمْعَةً فِي حَالِكِ الشَّكِّ فَأَسْتَرْوَحُ⁴

- 1- يريد بالقوم: الإنجليز. ولا ينوي، أي الليل. شبه الليل بجيش الاحتلال في مصر في طول الإقامة، وعدم ظهور أمارات تدل على الجلاء؛ حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج2، القاهرة: دار المعارف، ص236.
- 2- حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج1، القاهرة: دار المعارف، ص237.
- 3- حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ج2، القاهرة: دار المعارف، ص95.
- 4- المصدر نفسه، ص95.

اتّضح فيما أسلفنا، أنّ الاستقلال الوطني مما التفت إليه حافظ التفاتاً بالغاً يجعل قسطاً وافراً من أشعاره وفقاً عليه. ومن الملاحظ أنه يشير إلى أهمية هذه القضية باستخدام صور تمثيلية تجعلها ملموسة لا يصعب فهمها على القارئ. إن المجتمع المثالي من منظور شاعر النيل ليس المجتمع الذي لا شأن لأهلها في إدارة أمورها، ولا نصيب لهم مما فيها، بل هو مجتمع مستقلّ منيع الجانب قائم بالذات لا يُمكن للأجانب انتهاك استقلاله والتدخل في شؤونه والتصرف في ثرواته. لأنه يرى واقع الشعب المصري وما يفعل بهم الاستعمار الأجنبي في استنزاف أموالهم وتضييع حقوقهم، فيجد البون شاسعاً بين ما يكون وما ينبغي أن يكون.

الخاتمة

ارتكناً للإيجاز وتجنباً للإسهاب الذي لا موجب له نلخص ما تمخّض عنه البحث فيما يلي:

❖ تجلّى في ديوان حافظ إبراهيم العديد من الأبيات التي تعكس تشاؤمه العميق تجاه واقع المجتمع المصري والعربي، مما يؤكّد أن فكرته عن المجتمع المثالي نشأت من مواجهة مجتمع يعاني من عوائق كثيرة تعوق تحقيق إمكانياته التنموية والازدهار المنشود. تتبلور مكونات المجتمع المثالي عند حافظ في أربعة عناصر رئيسية: الحب، والحرية، والوحدة الوطنية مع التسامح الديني، والاستقلال الوطني. رغم الجدل الدائر حول مفهوم الحرية، يؤكد حافظ على ضرورة تحقيق توازن دقيق بين حرية المرأة وحرية التعبير، بحيث تكون الأولى منسجمة مع أحكام الشريعة الإسلامية بعيداً عن التطرف أو التفریط، والثانية تحمي تنوع الآراء وتمنح مساحة رحبة لحوار مفتوح دون انحياز يهدد وحدة المجتمع. فتواجه المجتمعات العربية، من منظور حافظ، عقبات داخلية كالتطرف والتشرد الاجتماعي، بالإضافة إلى تأثيرات خارجية كالاستعمار الذي يسعى إلى سلب الحقوق والحرية والاستقلال، مما يزيد من تعقيد مسار التقدم والرفي. في هذا الإطار، يتجلّى ارتباط مفهوم الحرية عند حافظ إبراهيم ارتباطاً وثيقاً بحرية الصحافة والإعلام، إذ يرى أن الصحف اليومية ليست مجرد أدوات لنقل الأخبار، بل هي ساحة حيوية تعبّر عن هموم الناس وتشكّل صوت المجتمع. ومن خلالها يتحقق وعي الجمهور وتنشع حرية التعبير، التي تُعدّ الركيزة الأساسية لأي مجتمع يطمح إلى المثالية والتقدم الحقيقي. كما أنه تبرز أهمية الوحدة الوطنية كضرورة ملحة تتجاوز حدود الدولة الواحدة، لتصبح هدفاً قومياً يشمل كل الدول العربية، إذ إن التضامن العربي يشكل الدرع الذي يحمي الأمة من مخاطر التفكك والاستعمار المتجدد، ويعزز من قدرتها على مواجهة التحديات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

❖ تُعدّ مجموعة من العوامل المتشابكة أبرز الموانع التي تحول دون تحقيق رؤية حافظ إبراهيم للمجتمع المثالي. في مقدمة هذه العوامل يأتي فقدان الاستقلال الوطني، إذ تمثل السيطرة الأجنبية والوصاية على الدول العربية عائقاً رئيسياً يحدّ من سيادتها ويقوّض كرامة شعوبها وحرّيتها الحقيقية، مما يعرقل تقدمها ويجعلها عرضةً للتبعية والاضطراب. إلى جانب ذلك، يُعتبر غياب الحرية، لا سيما حرية التعبير وحرية الصحافة من العوامل الجوهرية التي تحدّ من قدرة المجتمع على النمو والتطور حيث تحرم المجتمعات من المنابر التي تعبّر عن همومها وتدافع عن حقوقها، مما يضعف الوعي العام ويعيق النقاش

البناء الذي هو أساس لأي مجتمع مثالي؛ كما يشكل ضعف الوحدة الوطنية والتسامح الديني بين المواطنين عاملاً آخر يعرقل بناء المجتمع المثالي، إذ يؤدي التشرذم والانقسامات الداخلية إلى إضعاف اللحمة الاجتماعية ويزيد من فرص استغلال القوى الخارجية لهذه الانقسامات لإدامة حالة التبعية والضعف. وعلى صعيد أوسع، فإن غياب الوحدة والتضامن بين الدول العربية نفسها يمثل عقبة كبرى أمام تحقيق النهضة الشاملة، إذ إنّ تفرُّق الأمة العربية يمنح القوى الاستعمارية السابقة والجديدة فرصاً للتدخل والسيطرة مما يستوجب تعزيز التلاحم والتكاتف العربي كخطوة أساسية لإعادة بناء المجتمع المثالي الذي يطمح إليه حافظ إبراهيم، والذي يركز على قيم الحرية والكرامة والعدالة والوحدة.

قائمة المراجع:

• المؤلفات:

1. القرآن الكريم
2. أبو الشباب، واصف، (1988م)، القديم والجديد في الشعر العربي الحديث، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.
3. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (1998م)، لسان العرب، نسقه ووضع فهارسه: علي سيري، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
4. الباوي، محمد محمود، (2004م)، عمالقة الأدب العربي المعاصر، بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم.
5. بركات، سليم ناصر، (1984م)، مفهوم الحرية في الفكر العربي الحديث، ط2، دمشق: دار دمشق.
6. البوطي، محمد سعيد رمضان، (2010م)، الحب في القرآن ودور الحب في حياة الإنسان. دمشق، دار الفكر.
7. الجمل، شوقي وعبد الرزاق إبراهيم، عبد الله، (1997م)، تاريخ مصر المعاصر، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع.
8. حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ط4، ضبطه وشرحه ورّبه أحمد أمين، وأحمد زين، وإبراهيم الأبياري. ج1، القاهرة، دار المعارف.
9. حافظ إبراهيم، محمد، (2004م)، الديوان، ط4، ضبطه وشرحه ورّبه أحمد أمين، وأحمد زين، وإبراهيم الأبياري. ج2، القاهرة، دار المعارف.
10. خضر، خضر، (2008م)، مدخل الى الحريات العامة وحقوق الانسان، ط3، بيروت: المؤسسة الحديثة للكتاب.
11. الرمادي، جمال الدين، (د ت)، من أعلام الأدب المعاصر، القاهرة: دار الفكر.
12. سعيد، جلال الدين، (2004م)، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، تونس: دار الجنوب للنشر.
13. ضيف، شوقي، (د ت)، الأدب العربي المعاصر في مصر، القاهرة: دار المعارف.
14. الفاخوري، حنا، (1986م)، الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب الحديث، بيروت: دار الجليل.

15. عبد الرحمن إبراهيم، أحمد، (1989م)، الفضائل الخلقية في الإسلام، المنصورة: دار الوفاء للطباعة والتوزيع.
16. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (2003م)، كتاب العين مرتبا على حروف المعجم، ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هندراوي، بيروت: دار الكتب العلمية.
17. كردعلي، محمد، (1993م)، المعاصرون، علّق عليه محمد المصري، بيروت: دار الصادر.
18. الكفوي، أبو البقاء، الكليات، (د ت)، تحشية: عدنان درويش، محمد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة.
19. محمود عبد الله، السعيد، (د ت)، حافظ إبراهيم دراسة تحليلية لسيرته وشعره، الإسكندرية: دار الفارابي للنشر والتوزيع.
20. هاشمي ركاوندي، سيد مجتبی، (1378ش)، مقدمه‌ای بر روان‌شناسی زن با نگرش علمی و اسلامی، چاپ سوم، قم: نشر شفق.

• الأطروحات

1. المنتشري، الشمراني، فوزية بنت عبد الله بن عايض، (2009م)، الأخلاق في شعر حافظ إبراهيم (دراسة موضوعية وفنية)، بحث تكميلي مقدم لنيل درجة ماجستير في الأدب، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.

• المقالات:

1. برحمة، آمال، (2018م)، الاتجاه الإنساني في أدب فيكتور هيغو وحافظ إبراهيم _دراسة مقارنة_، مجلة البدر، (10)، 10، 1236-1249.
2. بيراني شال، علي وأميدوار، أحمد، (1389ش)، تأثير آراء محمد عبده في أشعار حافظ إبراهيم الدينية، مجلة بحوث في اللغة العربية وآدابها، جامعة إصفهان، العدد 3، 21-40.
3. بيراني شال، علي وغلامي يلغون آقاج، علي حسين (1391ش)، الشكوى من الشقاء والفقر والظلم والدمار في شعر حافظ إبراهيم، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، العدد 24، 25-53.
4. دلشاد، جعفر وأصغري، محمد جعفر (1390ش)، تحليل تطبيقي سيمای شرق و غرب در اشعار حافظ ابراهيم و اقبال لاهوري، فصلنامه نقد و ادبيات تطبيقي، العدد 1، 1-22.
5. زروقي، ثامر، (2024م)، موقف "زكي نجيب محمود" من مسألة الحرية، مجلة رفوف، (1)، 12، 1174-1192.
6. مختاري، نزيهة، بروال، أحمد، (2019م)، مشروع الوحدة الإسلامية دراسة تحليلية لأعمال ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر، مجلة الإحياء، (2)، 19، 499-528.

7. مسعودي، عبد القادر، (2022م)، مقصد الوحدة بين نداءات الشرع وتداعيات الواقع، مجلة المعيار، (36)26، 151-176.
8. ميرممتاز، أكرم السادات (1426ق)، نقد قصيدة النبات للشاعر الكبير حافظ إبراهيم، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، العدد 15، معهد العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية، 397-414.
9. نصيرة، كرمين، (2021م)، سؤال الحرية في الإسلام عند محمد إقبال، مجلة مقاربات فلسفية، (1)8، 133-154.